مجلة الرواق للدراسات الاجتماعية والإنسانية | ISSN: 2437 - 0363 EISSN 2602-6767 | المجلد 08 / العـدد: 02 (2022)، ص 632- 647

من أجل التأصيل لسوسيولوجيا محلية

–قراءة في أعمال عبد القادر لقجع، بشير محمد وجمال غريد -

In order to root a local sociology

- Reading in the works of Abdelkader Lakjaa and Bashir Mohammed

وسيلة عيسات[1*]، بن هامل جميلة[2]

[1] جامعة طاهري محمد بشار (الجزائر)، aissat.wassila@yahoo.fr

[2] المركز الجامعي مغنية (الجزائر)، hameldjamila@yahoo.com ،

تاريخ الاستلام: 2022/07/26 تاريخ القبول: 2022/12/25 تاريخ النشر: 2022/12/28

ملخص: سنحاول من خلال هذه الورقة التطرق إلى إشكالية لطالما شغلت فكر العديد من السوسيولوجيين في الجزائر، ألا وهي واقع السوسيولوجيا في دراسة المجتمع الجزائري ولماذا لم نستطع فهم مجتمعاتنا العربية لحد اليوم؟ هذه السوسيولوجيا المدعوة اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى تجاوز فكرة الكونية والعالمية للسوسيولوجيا الغربية والوصول إلى بناء والتأصيل لسوسيولوجيا محلية عربية وفق قاعدة ابستمولوجية نقدية، وباعتباره نظاما معرفيا يستوجب إعادة النظر في علاقته بالواقع المجتمعي والابستمولوجي. وانطلاقا من هذا سنحاول التطرق على سبيل المثال لا الحصر إلى مساهمات كل من الأستاذ عبد القادر لقجع والأستاذ بشير محمد .

كلمات مفتاحية: السوسيولوجيا.، عبد القادر لقجع.، بشير محمد.، المجتمع.، الجزائر.

Abstract: Through this paper, we will try to address a problem that has always occupied the thought of many sociologists in Algeria, namely, the reality of sociology in the study of Algerian society, and why have we not been able to understand our Arab societies until today? This sociology is called today more than ever before to transcend the idea of universality and the universality of Western sociology and reach the building and rooting of an Arab local sociology according to a critical epistemological base, and as a system of knowledge that requires a review of its relationship to societal and epistemological reality. Based on this, we will try to address, for example, but not limited to, the contributions of Professor Abdelkader Lekjaa and Professor Bashir Mohamed.

Keywords: Sociology; Abdelkader Lakjaa; Bachir Mohamed; Society; Algeria.

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

يشهد المجتمع الجزائري على غرار كل المجتمعات العربية مجموعة من التحولات والتغيرات المتسارعة والمتفاوتة في شتى المجالات، نظرا للتأثيرات الداخلية والخارجية مما استدعى دراستها وتحليلها لفهمها، ويبقى هذا هو الدور الذي ينبغي على العلوم الاجتماعية والانسانية بمختلف تخصصاتها القيام به. وتكمن الأهمية هنا في إعادة بعث دور ومكانة وحيوية السوسيولوجيا في دراسة المجتمع وفهمه، ومن ثمة محاولة حل أهم المشكلات الراهنة التي يشهدها، خاصة في المجتمعات العربية وعلى رأسها الجزائر، والتي تستهين في بعض الأحيان بأهمية هذه العلوم، فالمشكلة تكمن كما أكد الأستاذ عبد القادر لقجع بعلم اجتماع أو سوسيولوجيا لم تتمكن بعد من بناء واسترداد نزعتها النقدية القائمة بالأساس على نقد الذات (...) أي سوسيولوجيا لم تظهر بعد إلى الوجود (عبد القادر لقجع، 2002، ص11)، من جهة، ومن جهة أخرى كيف يمكن إعادة بناء مجال بحث في ضوء مؤسسات يصعب عليها فهم رهان هذا التخصص (Lakjaa Abdelkader,2017,P494) ، فلطالما كان النقاش يدور حول علمية هذا العلم بسبب التباس وضعه الابستمولوجي. وهو ما يؤكده بيير بورديو حين ذكر أنه من أساليب التخلص من الحقائق المقلقة هو الزعم بأنها لا علمية"(Pierre Bourdieu, 1993, P21) . وبالتالي محاولة البحث في آفاق وتحديات ورهانات هذه العلوم في العصر الحالي، وكذا المساهمة والدخول في السوسيولوجيا الغربية ومحاولة بناء سوسيولوجيا محلية، وتفادي العجز في مواكبة وفهم هذا الواقع الجديد المتطور، وانبثاق هذا المجتمع الجديد -على حد تعبير الاستاذ عبد القادر لقجع- المختلف والمغاير، والذي يحتاج بالفعل إلى إعادة قراءة، ودراسة وفهم، إذا ما أدرك الباحثون في العلوم الاجتماعية والانسانية الدور الهام الواجب عليهم القيام به لتفادي الزوال في خضم هذه المعركة، وتفادي موت العلوم الاجتماعية والانسانية في الجزائر خاصة، وفي الوطن العربي بصفة عامة. وبالمقابل لا يمكن لنا أبدا أن ننكر أن العلوم الاجتماعية والانسانية وعلى رأسها السوسيولوجيا

تعيش أزمة اليوم، بدليل أننا لا نفهم مجتمعاتنا، والسبب ليس فقط في عدم القدرة على مواكبة هذا التطور الهائل وإنما دراسة المجتمع الجزائري في هذه المرحلة بالذات بنظريات قد تجاوزها الزمن ولم تعد صالحة لدراسة الواقع الحالي للمجتمع الجزائري بمشكلاته الجديدة. فكل الباحثين في مجال العلم الاجتماعية والانسانية يقرون على أننا نعيش بالفعل تحولات متسارعة تتغير فيها حتى المعارف بسرعة كبيرة وبات من الضروري بطبيعة الحال إعادة التفكير في أساسيات البحث والدراسة بما يتواكب مع هذه الأوضاع والمعطيات الجديدة. وبالتالي فنحن أمام خيارين: فإما التشاؤم والعجز أمام هذه التغيرات وبالتالي الزوال ونبقى مجرد تابعين للغرب في هذا المجال دون أدنى حد من المساهمة لفهم مشكلات مجتمعاتنا الراهنة، وإما المساهمة بشكل فعال في العلوم الاجتماعية والانسانية بالدراسة والنقد والفحص والتدقيق في مشكلات المجتمع في حد ذاته وبالتالي الانطلاق من ذات المجتمع وخصوصيته ونقد النظريات والمناهج والأدوات المستخدمة في دراسة هذا المجتمع وتصحيحها في ضوء المتغيرات التي يشهدها وما تشهده من معطيات ابستمولوجية وسوسيولوجية جديدة. وبالتالي فنحن الآن فعلا أمام مرحلة مفصلية حاسمة ولنا أن نختار. وعليه فهنا تكمن ضرورة نشر وتنمية العلوم الاجتماعية والانسانية وإبراز دورها الأساسي في مواجهة المشكلات المختلفة الراهنة التي يشهدها المجتمع اليوم.

وبالتالي ماهي أهم التحديات والرهانات والاستراتيجيات التي يجب أن تتبناها العلوم الاجتماعية والانسانية في دراسة المجتمع الجزائري ومواكبة التغيرات الحاصلة؟ لماذا لم يصل علماء الاجتماع في الجزائر إلى فهم المجتمع الجزائري لحد الآن؟ ماهو موقع ودور علماء الاجتماع من تحليل وفهم الواقع ؟ لماذا لم تتمكن السوسيولوجيا من فهم دقيق لمختلف المشكلات والأزمات التي يعاني منها المجتمع؟ هل إذا اختفى علماء الاجتماع من الساحة الجزائرية سيحدث تأثير؟ هل لعب علماء الاجتماع في الجزائر الدور المنتظر منهم في حل المشكلات والأزمات؟

2. عبد القادر لقجع وفكرة بناء سوسيولوجيا محلية:

يعتبر عبد القادر لقجع، بشير محمد وجمال غريد من بين أهم السوسولوجيين الجزائريين الذين كانت تجمعهم فكرة واحدة وهي كيفية خلق وبناء علم اجتماع محلي ومن ثمة علم اجتماع عربي. فالسوسيولوجيا في الجزائر مدعوة اليوم إذا لم نقل ملزمة إلى الارتباط الوظيفي بأهم التحولات والتغيرات المتسارعة التي يشهدها المجتمع ومتلازماتها من المتغيرات للتمكن من دراسته وفهم هذه التحولات من جهة، ورسم رؤية لما ينبغي أن يكون عليه من جهة ثانية، باعتبار علم الاجتماع نظاما معرفيا مرتبطا بالدرجة الأولى بمختلف الأحداث والحاجات السوسيو-ثقافية التي تحدق بالمجتمع وارتباطه بمتغيرات المرحلة الحالية، وهذا هو الدور الأساسي الذي ينبغي على علم الاجتماع القيام به، على اعتبار أنه ليس بمادة دراسية فقط معزولة عن الواقع تقدم ضمن السياقات المعرفية المقدمة للطالب، بل هو نظام معرفي، وبالتالي للاشتغال به لابد من مراعاة هذه الطبيعة إضافة إلى علاقته بالواقع الاجتماعي المدروس، أي الانطلاق مما هو موجود وهو خصوصية المجتمع الجزائري المحلي وهو ما دعا إليه دائما الأستاذ عبد القادر لقجع في العديد من أعماله، وبالتالي فهو كنظام معرفي يستوجب النظر في علاقته بالواقع المجتمعي. فكيف نفسر إذا عدم قدرتنا على فهم مجتمعنا لحد الآن؟ هل هناك فعلا إنتاج سوسيولوجي أم أنه فقط مجرد نقل لما توصل إليه الآخر الذي هو الغرب؟

فشل السوسيولوجيا في تحقيق ذلك وهو ما ورد على لسان السوسيولوجيين أنفسهم بقولهم "أن السوسيولوجيا لم تظهر قط إلى الوجود"(عبد القادر لقجع، 2002، ص10) وبتعبير الأستاذ جمال غريد علماء اجتماع ينتظرون مجتمعهم ومجتمع ينتظر علماء اجتماع. وفي نفس السياق اعترفت الباحثة الفرنسية كلودين شولي بفشل السوسيولوجيا قائلة "بالرغم من أن جل الدول المتحررة من الاستعمار وقع فيها جدال حول الأنثروبولوجيا وتم تعويضها بعلم الاجتماع مثل الجزائر، ليأخذ على عاتقه التفسير العلمي للتغيرات والتحولات الاجتماعية ما بعد الاستقلال، وليكن أيضا علما في خدمة

التنمية، إلا أن الواقع كشف لنا عن حقائق حالت دون تمكن هذا العلم من النجاح لعدة أسباب"(Claudine Chaulet, 2002, P65) منها ما كانت سياسية، فالسلطة في الجزائر لم تهتم أبدا بالأبحاث المنجزة من قبل العلوم الاجتماعية وخاصة الأنثروبولوجيا وحتى علم الاجتماع (Nadir Marouf, 2017, P38) . والفكرة الثانية تعود في المرحلة الحالية إلى الافتقار للممارسة الميدانية ولهذا دعا الاستاذ جمال غريد (Djamel Gherid, 2013) وهي نفسها فكرة عبد القادر لقجع في آخر مرجع له إلى محاولة تجاوز الكونية الأوربية في السوسيولوجيا وبناء سوسيولوجيا عربية محلية تعمل على استنطاق الواقع الجزائري ومستوحاة من خصوصيته الثقافية، الاجتماعية والتاريخية.

1-1-التأصيل لنظرية سوسيولوجية حديثة لدراسة المجتمع الجزائري:

يرى عبد القادر لقجع أنه كلما كان المحتوى بعيدا عن الواقع الذي يستمد منه، كلما كانت مردودية هذا العلم ضعيفة بسبب بعدها عن الواقع الاجتماعي، وكلما كان تعليم وتلقين السوسيولوجيا تلقينا أكاديميا بحتا، كلما كان تأثير المشتغلين في هذا العلم سلبي لأنه غير مرتبط بالواقع، خاصة إذا كان مضمون السوسيولوجيا مرتبط بالواقع ومكيف أيضا حسب متطلبات هذا الواقع وانطلاقا منه.

سؤال آخر يطرح نفسه الآن وبإلحاح: هل المشتغلون اليوم في السوسيولوجيا وبصفتهم فاعلين في هذا الحقل ارتقوا أو استطاعوا إحداث تأثيرات وتغييرات في الحقل السوسيولوجي التقليدي خاصة فيما يخص النظريات المعتمدة لدراسة الواقع الاجتماعي والتي لا تفيد في دراسة الظواهر الاجتماعية النابعة من خصوصية المجتمع الجزائري؟ وهذا ما كان يركز عليه الأستاذ عبد القادر لقجع. فعلم الاجتماع لن يحقق مشروعه إذا بقي بعيدا عن الواقع يعتمد على استنساخ نظريات أنتجت من واقع مختلف واعتماد أساليب بعيدة كل البعد عن الواقع المدروس. وبالتالي تبقى التبعية الغربية لعلم الاجتماع كونه نسخة عن ممارسات سوسيولوجية غربية نابعة من مجتمعاتها الأصلية والتي لا

تخدم كعلم أو نظريات خصوصية المجتمع الجزائري. وبالتالي يصبح الإنتاج السوسيولوجي في الجزائر مجرد نقل لما توصل إليه الغرب، أي لازلنا تابعين لا أكثر.

وقد اتفق عبد القادر لقجع مع جمال غريد حول فكرة السوسيولوجيا المحلية والانطلاق من الخصوصية، أين يستعرض الممارسات السوسيولوجية وأدبياتها في ظل إشكالية الكونية والخصوصية (Djamel Guerid, 2013, 239) ويتطرق إلى السوسيولوجيا من بابين، باب الكونية وباب الخصوصية، وهنا يكمن لب الإشكال الحقيقي الذي تعاني منه السوسيولوجيا في الوطن العربي والجزائر على وجه الخصوص وهي نفسها فكرة عبد القادر لقجع وبشير محمد. وهي محاولة معرفة وفهم واقع وبنية المجتمع الجزائري وتغيراته وأهم التحولات التي طرأت عليه انطلاقا من التراث السوسيولوجي المتراكم في أدبيات ونظريات علماء الاجتماع الغربيين والذي لازلنا لحد الساعة نستعمله في دراسة المجتمع الجزائري. فجاءت أفكارهم كرد على المسلمة القائلة أن العلم حتى بالنسبة للسوسيولوجيا ودراسة الظواهر الاجتماعية هو من نتاج العبقرية الأوربية وحدها دون منازع وبالتالي يجب أن يكون كونيا، وهذا خطأ خاصة عندما يتعلق الأمر بدراسة الظواهر الاجتماعية في مناطق تختلف تماما عن المجتمعات التي وجدت فيها تلك النظريات. وبالتالي فالمسألة بحاجة كما أسماها محمد عابد الجابري بتبيئة المفاهيم والنظريات خاصة مع الواقع الذي ستدرسه بكل خصوصيته وصيروراته وسياقاته الثقافية والاجتماعية والقيمية، أو الجري على منوال المجتمعات الغربية واتباع نظرياتهم وتطبيقها كما هي في دراسة تحولات مجتمعنا الجزائري المحلي. هنا تطرح إشكالية الخصوصية والكونية، ما هو محلي وماهو عالمي.

2.1 عبد القادر لقجع وفكرة سوسيولوجيا الذات –الانتقال من الابستمولوجيا إلى السوسيولوجيا:

أو ما أسماه جمال غريد بالدخول عن طريق الخصوصية. يقوم هذا الاتجاه على رفض السوسيولوجيا الغربية ويدعو بالمقابل إلى تأسيس علم اجتماع عربي يبني على

الخصوصية المحلية، أي العودة إلى الخصوصية كما عبر عن ذلك الأستاذ عبد القادر لقجع وعادل فوزي "إنه لمن الضروري حين نرسم سبل البحث الأنثروبولوجي في الجزائر التعبير ليس فقط عن خصوصية الموضوع بل أيضا عن خصوصية الطريقة العلمية، إذ أن لكل مجتمع معاييره الخاصة لتأويل الواقع الذي على الأنثروبولوجيا الامتثال له (Abdelkader Lakjaa et Adel Fouzi, 2001)ونفس الشيء ينطبق على السوسيولوجيا، أي نموذج سوسيولوجي برؤى محلية من خلال مقاربة ومنهج سوسيولوجيا محلية لا برؤى ونظريات غربية. وهو ما دعا إليه الأستاذ جمال غريد (Djamel Guerid, 2013) وهذا ليس معناه الإلغاء الكلي والتام للسوسيولوجيا الغربية وإنتاج علم اجتماع عربي أو جزائري محض، وإنما وكما يرى الأستاذ عبد القادر لقجع توسيع الإطار الفكري الذي أدى إلى إنتاج علم اجتماع، وهذا التوسيع يكون معتمدا ومنطلقا مما هو محلي، وبمعنى آخر أن نطالب بحقنا في المساهمة في علم الاجتماع، وهذه المساهمة لا تكون على مستوى مقبول إلا إذا جاءت بالجديد، وهذا الجديد لا يكون له معنى إلا إذا انطلق من الواقع المحلي الاجتماعي والثقافي وليس من النظريات الموجودة، فإما أن نساهم في علم الاجتماع انطلاقا من واقعنا المحلي وإما أن نزول نظريا.

وبالتالي نحن أمام سوسيولوجيا بدون مجتمع، فإذا كان ريمون أرون يقول أن أشد ما يحتاج إليه علم الاجتماع الفرنسي هو علماء الاجتماع، فإن أشد ما يحتاج إليه علماء الاجتماع العرب هو علم الاجتماع نفسه (Djamel Guerid, 2013, P222) . فالمشكلة المطروحة اليوم وببساطة هي مصداقية السوسيولوجيا الغربية في مقاربة المجتمعات العربية، بسبب قيامها على النظرة الشمولية والكونية والتي لا يمكن أن تكون إلا كونية أوربية بطبيعة الحال. وبالتالي المطلوب هو إعادة تقييم نقدي للتراث السوسيولوجي في علاقته سواء بالمجتمعات الاوربية أو العربية لمحاولة إعادة التأسيس لعلم اجتماع بإمكانه تحليل وفهم تغيرات وتحولات كل المجتمعات لكن بناءا على قواعد ومبادئ يمكن أن

تشكل قواسم مشتركة لبناء نظرية سوسيولوجية حديثة شاملة تأخذ بعين الاعتبار خصوصية كل مجتمع.

هنا أجد نفسي مضطرة لإعادة نفس سؤال الأستاذ جمال غريد: لماذا كان ضروريا في بلادنا إعادة التفكير في علم الاجتماع، أو السوسيولوجيا، هذا العلم الأوربي؟ لماذا كان لزاما علينا البدء بإعادة قراءة نقدية لسوسيولوجيات الأمس واليوم؟ خاصة ما تعلق منها بالنظريات المستخدمة والمعتمدة لدراسة المجتمعات. لماذا كان الأمر ضروريا في فحص نقدي لمختلف المحاولات التي جرت عندنا للدخول في علم الاجتماع (Djamel Guerid, 2013, P12). وهنا ربما تكون الإجابة بسؤال طرحه الأستاذ عبد القادر لقجع حول السوسيولوجيا في الجزائر: لماذا لم نتمكن لحد الآن للوصول إلى فهم مجتمعنا؟

حسب عبد القادر لقجع للدخول في إقليم السوسيولوجيا التي هي غربية المنشأ احترام المبادئ والأسس التي نشأت عليها. فبالنسبة إليه، لقد تعدى علم الاجتماع في المجتمعات الغربية مرحلة عدم التفكير Impensé في حين نحن نحتاج إلى إعادة التفكير فيه، وفي الوقت الذي من المفروض تعددت فيه السوسيولوجيات من منطلق أن لكل مجتمع سوسيولوجيته أي انطلاقا من ذاته (وهي الفكرة التي يشترك فيها عبد القادر لقجع وبشير محمد)، فإن تعدد المدارس والنظريات يعتبر مسألة ثانوية بالنظر إلى اعتبار وجود علم اجتماع واحد كوني وعالمي وهو علم الاجتماع الغربي. وبالتالي نجد أنفسنا نعيد صياغة فكرة بورديو عن الشباب عندما قال الشباب ما هو إلا كلمة وبالتالي فليس علم الاجتماع إلا كلمة (Djamel Guerid, 2013, P24) يصعب تحديدها.

إن إعادة التفكير في الممارسات السويولوجية وعلاقتها بدراسة المجتمع وفهمه سواء بالنسبة للأستاذ عبد القادر لقجع أو بشير محمد أو جمال غريد ترجع إلى عدم الرضا عن هذه الممارسات منطلقين من تأملاتهم النقدية والتحليلية للمفاهيم والنظريات المتعلقة بالسوسيولوجيا الغربية، والتي لم يؤدي توظيفها في دراسة المجتمع الجزائري إلى نتيجة مقنعة أو بالأحرى إلى مقاربة علمية مقنعة، ما استوجب بالتالي إعادة التفكير في النظريات

خاصة، وهو أمر اعترف به الأستاذ عبد القادر لقجع في ممارسته لبحوثه السوسيولوجية، وكذلك يظهر في تساؤله المركزي: (لماذا لم نصل بعد لفهم مجتمعنا). وهنا نجد أنفسنا أمام خيارين: إما إدخال الواقع الاجتماعي الذي تمت ملاحظته في المفاهيم والنظريات الموجود والجاهزة للاستعمال أو بالأحرى للاستهلاك، أو التساؤل انطلاقا من هذا الواقع الاجتماعي حول هذه المفاهيم والنظريات المستخدمة، أي الانتقال من الابستمولوجي إلى السوسيولوجي وليس العكس، من الواقع إلى النظرية كما عبر عنها عبد القادر لقجع، وبالتالي فالمشكلة تكمن في السياق الاجتماعي والثقافي الذي أنتجت ووظفت فيه والذي يختلف تماما عن الأول.

فكرة أخرى مهمة للأستاذ عبد القادر لقجع وهي فكرة التحرر. بمعنى كيف تحاول الجزائر التحرر من السوسيولوجيين الغربيين أي التحرر من هيمنة السوسيولوجيا الغربية، هذا التحرر العلمي الذي سيؤدي إلى القيام بسوسيولوجيا محلية. فالسوسيولوجيا في الجزائر لم تتطور إلا من خلال المحاكاة للسوسيولوجيا الغربية، ولم تتجاوز بعد دائرة التهميش التي وضعت فيها سواء من خلال فكرة ارتباطها بالنظريات الغربية و من خلال عدم القدرة على استنطاق واقع مجتمعاتنا العربية ابستمولوجيا، وهو ما يظهر خاصة من خلال التلقين النظري للسوسيولوجيا للطلبة وليس التكوين الميداني. بمعنى إعادة قراءة وفهم وإنتاج الواقع ولكن من منظور محلي وليس من منظور غربي.

فكرة أخرى وهي أن من أسس بناء أنثروبولوجيا محلية العودة إلى الذات. هنا سنستعير فكرة الأستاذ عبد القادر لقجع (Lakjaa Abdelkader, 2017, P504) حول مسألة الانتقال من أنثروبولوجيا الغيرية أو الآخر L'anthropologie de l'altérité إلى أنثروبولوجيا الذات L'anthropologie de soi إذا أردنا تحقيق الجانب الابستمولوجي في الأنثروبولوجيا. فالسؤال المطروح من قبله (الأستاذ عبد القادر لقجع) هو هل ممكن أن نكون أنثروبولوجيين في مجتمعنا المحلي؟(Lakjaa Abdelkader, 2017, P488) وهي نفس الفكرة التي سنطبقها على السوسيولوجيا، أي ضرورة العودة إلى الذات ودراسة المجتمع محليا

فهل من الممكن أن نكون فاعلين ومنتجين في حقل السوسيولوجيا بعدما كنا مجرد متلقين؟

2 بشير محمد والتأصيل لسوسيولوجيا محلية

لقد حاولنا في هذه الورقة القيام بعملية تركيب وعرض لأهم ما جاء في بعض انجازات محمد بشير (بشير محمد، 2019) وبالأخص فيما يتعلق بفكرة التأصيل لعلم اجتماع محلي سواءً من حيث الموضوع أو الطريقة. ننبه أننا استلهمنا مجمل هذه الأفكار كما صاغها صاحبها في حدود كبيرة. فقد استند الباحث في البرهنة على فكرة التأصيل هذه إلى بعض أبرز الباحثين العرب الذين ناضلوا ولازالوا يناضلون من أجل تحقيق هذا الهدف المنشود، مستشهدا بأقوالهم. إذ تبرز أبحاثهم العلمية أهمية التحقيقات الميدانية في مجاراة التغيرات التي تحدث في المجتمعات العربية بعامة والمجتمع الجزائري بخاصة.

لقد حاول محمد بشير في هذا الإطار مناقشة خصوصية الموضوع للتوجه السوسيولوجي المهيمن ومن ثم الوضعية الراهنة لعلم الاجتماع في الوطن العربي. من خلال مسألة محدودية نسخ المفاهيم .

1.2 راهن علم الاجتماع في الوطن العربي بعامة والجزائر بخاصة:

***على مستوى الموضوع:**

يرى الباحث أن جل علماء الاجتماع في العالم العربي حاليا يتفقون على أن وضعية علم الاجتماع في توجهه المهيمن لم يستطع مواكبة التحولات الجارية مما أصبح يطرح حيرة وتساؤلات نذكر من بينها على سبيل المثال:

- جمال غريد (الجزائر):"فأشد ما نفتقد إليه نحن علماء اجتماع العرب هو علم اجتماع ذاته. فما هو قائم هو علم اجتماع لا مجتمع له، ومجتمع لا زال ينتظر علم اجتماعه ".

- لبيض سالم (تونس):"... لا وجود لسوسيولوجيا حقيقية خارج الأنا. إنها تجليات أزمة جوهرها غياب الفعل السوسيولوجي المؤسس الحقيقي" .
- عبد الصمد الديالمي (المغرب الأقصى):إن ولادة سوسيولوجيا مغربية وطنية تتأسس على ولادة مغرب جديد : مغرب العقل، مغرب الحرية.
- يمكن القول أن هذا التوجه قد يوصف بالوظيفي أو الوضعي الذي ترجم لما اصطلح عليه "بنظرية التحديث" نظرا لطبيعته الإجرائية.

لقد نبه على التباين في المواقف الابستمولوجية اتجاه التسمية المناسبة لموضوع البحث الاجتماعي في الجزائر، فقد تساءلت «كلودين شوليه»: هل يمكن الكلام عن أنثروبولوجيا و/أو سوسيولوجيا؟ نظرا للتداخل بين العلمين، بينما يرى «عادل فوزي» إمكانية الجمع بين العلمين في المقاربة المعروفة بالسوسيو-أنثروبولوجيا، في الوقت الذي يتقدم «جمال غريد» برؤية مخالفة تماما تمثلت في أنسنة علم الاجتماع أي إعطاءه الصبغة الأنثروبولوجية من حيث الموضوع والطريقة.

لقد استند الباحث إلى فكرة رئيسية في بحث 2001 لـ «عادل فوزي» أنه «من الضروري حين نرسم سبل البحث الأنثروبولوجي في الجزائر التعبير ليس فقط عن خصوصية الموضوع بل أيضا عن خصوصية الطريقة العلمية». كما أشار محمد بشير إلى المقدمة العامة التي صاغها "معروف نذير" لملتقى الأنثروبولوجيا (2002)، والذي دعا فيها إلى قياس مدى قابلية نسخ بعض البراديغمات، ومدى قدرتها على فهم واقعنا المحلي، باعتبار هذه الأخيرة هي نتاج فضاءات ثقافية مغايرة

2.2 على مستوى الطريقة:

يتفق معظم الباحثون - حسبه- على قصور المفاهيم المنسوخة من الغرب في استقراء واقع المجتمعات المحلية ومنها الجزائر، ويخص بالذكر كل من:

- جمال غريد: "صعوبة مقاربة الواقع الجزائري بالمفاهيم السوسيولوجية المعتادة"

- سعيد شيخي :" أننا مطالبون ببناء إشكالية وبصرامة ابستيمولوجية بمعنى بناء إشكالية تتماشى والموضوع الخصوصي والمنفرد ومن ثم ابتكار أدوات تحليل تستجيب لخصوصية موضوعها".
- محمد مبتول: تعدي بعض الإشكاليات حول العمل الصناعي التي نعتها بالإشكاليات الجاهزة غير المبرهن عليها إذ بمجرد ملامستها الواقع العيني تفقد كل وجاهة علمية.
- المحسن بوعزيزي (تونس): فهل بإمكان هذه البحوث اليوم التي تفضلتم بإنجازها أن تعلن عن عجز أدواتنا المعرفية والنظرية والمنهجية السابقة التي بناها واقع القرن 19 في أوروبا عن ملاحقة الواقع...؟
- يستدعي هذا الطرح إذا إعادة النظر في المواضيع السائدة، وكذا في جل الحقول النظرية نظرا للتحولات الجذرية التي عرفها و يعرفها المجتمع. لذا يعتقد أنه أصبح من متطلبات البحث العلمي أساسا مساءلة محدودية إجرائية المفاهيم المنسوخة.
- وبخصوص محدودية إجرائية المفاهيم في تعاملها مع الواقع المحلي الجزائري اقتصر على تقديم بعض الأمثلة لتوضيح هذه المسألة الابيستمولوجية الجوهرية:

*الحالة الأولى01: توطين المفاهيم

يرى "علي الكنز" أن مفهوم المؤسسة الاقتصادية المرتبط بالتجربة الرأسمالية في البلدان الغربية غير فعال في تناول وضعية المجتمع الجزائري وبالتالي من الضروري تعويضه بمفهوم المؤسسة الاقتصادية والاجتماعية نظرا لطبيعة التجربة.

- كما يمكن الإحالة على ما اقترحه "عبد القادر جغلول" فيما يخص مفهومي "أنطونيو غرامشي" المثقف العضوي والمثقف التقليدي بحيث يرى "جغلول" أنه من الضروري تحويرهما حسب خصوصيات مجتمعنا وبالتالي يوطن الأول إلى المثقف الموظف الذي يعني وكيل الدولة أو وكيل التنمية بينما يحور الثاني إلى المثقف المقلّد أي ذلك المثقف الناقد بمعنى ما، ولكنه ليس بناقد بالقياس إلى أن حدود نقده تتوقف عند مقارنة ما

هو قيمة خالدة أبدية، ثابتة وغير متغيرة بسلوكيات وعلاقات الوقت الحاضر (Abdelkader Djaghloul, 1982).

- في حيني يعيد "نذير معروف" النظر في مفهوم الأنومية (افتقاد المعايير) لـ" إميل دوركايم" مقترحا تفكيكه إلى مفهومين هما الأنومية الجماعية(Anomie molaire) والأنومية النووية أو الجزئية(Anomie moléculaire).(Revue NAQD, 1993, P19)

الحالة الثانية 02 : تصدير المفاهيم:

يرى "علي الكنز" أنه بإمكاننا تصدير مفاهيمنا نحن أيضا كي توطن في المجتمعات الغربية إذ يعد مفهوم العصبية عند ابن خلدون مفهوما وجيها لدراسة ما يمكن تسميته بفكر الجماعة" (L'ésprit communautaire)بالمعنى الذي منحه إياه "تونياس، يقول "علي الكنز" أن "بيار بورديو" لو كان على علم عندما أصدر أول أعماله حول الجزائر بهذا المفهوم لكان قد ساعده كثيرا.

الحالة الثالثة 03: الابتكار في المفاهيم

لقد ابتكر "جمال غريد" مفهوما جديدا مرتبط بالتجربة الجزائرية ألا وهو مصطلح "العامل الشائع" والذي يمكن إسقاطه على جميع الفئات الاجتماعية فنقول مثلا الطالب الشائع، الأستاذ الشائع، الصحفي والطبيب والمهندس والتلميذ...الشائع. ففي حقيقة الأمر من الضروري الكلام عن طريقة شائعة للوجود والتفكير والعمل كما يقول "غريد".

إذن يلاحظ المتتبع لمثل هذه الأبحاث أن الباحث يطمح إلى وضع لبنة في الحركة التأسيسية والتراكمية للإنجازات العلمية في الميدانين السوسيولوجي والأنثروبولوجي بالجزائر، ومتابعة النضال حتى وإن كان هناك من يعتقد أنه لا يمكن التخلي والابتعاد عن الانجازات الغربية.

يؤكد - محمد بشير- على مدى التقصير الكبير بخصوص التراكم العلمي الذي تعاني منه العلوم الاجتماعية بعامة في الجامعة الجزائرية. والذي يحول دون تكوين تراث علمي يبين مدى درجة التقدم التدريجي، والذي يصعب من مهمة القيام بالبحث العلمي.

إن ما هو ملاحظ أيضا أن انعقاد الملتقيات تبقى لقاءات لا تربطها ببعضها البعض أي صلة بحيث أنها لا تبني على ما توصل إليه أي ما تحقق في السابق من نتائج من جهة، وعليه فإن جل هذه الملتقيات لا تعالج إشكالات معرفية هي بمثابة أفق مغلقة يجب تعديها من جهة ثانية، ويمكن سياق الملاحظة نفسها على مراكز البحث. وفي هذا الاتجاه ذكرت "كلودين شوليه" عدم إثارة انتقادات علمية ما ينجر عنه إعاقة كل تقدم علمي.

توحي إذن هذه العناصر أن السوسيولوجيا المهيمنة، اهتمت بدراسة مجتمع خيالي غير واقعي، أخذ اتجاها غير الاتجاه المرجو له. وفي هذا السياق، يمكن القول أن محاولة تأسيس سوسيولوجيا مغايرة، تكون كما ظهر من خلال بعض عناوين أبحاث "جمال غريد"

- يجب الاستماع للمجتمع.
- يجب معرفة المجتمع.

4. خاتمة:

لقد حاول عبد القادر لقجع وبشير محمد ومعهم جمال غريد إرساء أسس لسوسيولوجيا وأنثروبولوجيا محلية قائمة بالدرجة الأولى على خصوصية المجتمع الجزائري المحلي متجاوزين فكرة الكونية في السوسيولوجيا باعتبار أن هناك كونيات متعددة وليس كونية واحدة. في الوقت الذي لم يقم الباحثون في علم الاجتماع –يقول عبد القادر لقجع- إلا بإعادة محاولة الارتباط النظري مجددا بالتقليد السوسيولوجي الأول الذي كان من صنع المؤسسين الغربيين أنفسهم (...) أي بممارسة السوسيولوجيا كعلم نقدي لذاته (عبد القادر لقجع، 2004، ص10) ولا تزال لحد الآن الجهود مكثفة من قبل الباحثين لتحقيق هاته الفكرة.

نعم يمكن ذلك لأن السوسيولوجيا هي أولا وقبل كل شيء علم محلي، فقط كيف يمكن للسوسيولوجي المحلي التحلي بالموضوعية في دراسة الآخر الذي ينتمي لنفس مجتمعه الأصلي. وأسئلة أخرى تحتاج إلى إجابة معمقة أهمها: كيف يمكن إعادة إنتاج التفكير حول المجتمع من قبل علم الاجتماع؟ هل تمة فعلا إعادة تفكيك المجتمع ودراسته سوسيولوجيا محليا؟ وهل هناك تراكم معرفي على مستوى البحث السوسيولوجي؟ كيف وهل يمكننا الإنتقال من الابستمولوجي إلى السوسيولوجي؟ هل الهاجس الابستمولوجي المعرفي هو أحد معوقات قيام سوسيولوجيا جزائرية؟ "هل أصبحنا أخيرا شركاء والأهم من ذلك منتجين في البحث السوسيولوجي؟ هل نجحنا في بعث بحوث محلية أصيلة؟ والإجابة على هذه الأسئلة وغيرها يمر عبر وضع قطيعة مع الممارسات التقليدية في السوسيولوجيا أي إعادة التفكير في الواقع وطريقة تفكير المجتمع ثم فكرة القاعدة الابستمولوجية في السوسيولوجيا، فلا معنى للممارسة السوسيولوجية -التي تكلمنا عنها سابقا- خارج نطاق التحليل المرتبط بالخصوصية الثقافية للمجتمع الجزائري المحلي.

5. قائمة المراجع:

1. لقجع عبد القادر (2002)، علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، وهران أيام 4،5،6 ماي، دار القصبة للنشر، الجزائر.
2. لقجع عبد القادر(2004)، تعريب جمال الدين غريد، علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، تنسيق عبد القادر لقجع، دار القصبة، الجزائر.
3. بشير محمد (2019)، علماء اجتماع التنظيمات والعمل في الجزائر، الرعيل الأول، الطبعة الثانية، دار كنوز، الجزائر.
4. بشير محمد (2021)، دراسات وأبحاث في سوسيولوجيا التنظيمات والعمل، دار كنوز، الجزائر.

5. Lakjaa Abdelkader (2017), Etre anthropologue chez soi : Un point de vue Algérien, Revue du changement social, université Mohamed Khider, Biskra, Algérie, N°3, Juillet.
6. Lakjaa Abdelkader et Adel Fouzi (2001), La socio anthropologie ou comment repenser la méthode, CRASC, Oran, Cahier n°1.
7. Gherid Djamel (2013), L'entrée en sociologie, Les limites de l'universel Européen, Implications concrètes dans le monde d'aujourd'hui, Ed Publisud, Paris.
8. Claudine Chaulet(2002), la sociologie au service du développement rétrospective, in sociologie et société en Algérie, Acte du colloque national de sociologie, mai, Oran, Edition Casbah, Algérie.
9. Maarouf Nadir (2017), un demi-siècle de recherches en sciences humaine, entretien avec Nadir Marouf Regards sur la sociologie en Algérie, L'homme, le sociologue et l'anthropologue, Revue internationale d'anthropologie cognitive, N°3.
10. Pierre Bourdieu (1993), Question de sociologie, Ed Cérès, Tunis.
11. DJEGHLOUL. A (1982), In Algérie Actualité, N°848 du 7-au 13 janvier.
12. Revue NAQD (1993). N ° , P19.